مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا

خطبة الجمعة التي ألقاها د. محمود أبو الهدى الحسيني في الجامع الأموي الكبير بحلب

بتاريخ ٢٠٠٧/٦/٢٢

لماذا يُعرِض الإنسان عن الحقِّ، والحقُّ بَيِّن؟

ولماذا يسمع الإنسان هداية رُسُل الله التي تحمل إليه كلَّ خير، ثم تجده بعد ذلك مُتوجِّهًا إلى سُبُل الشيطان التي لا رشاد فيها ولا هداية؟

إنه سؤالٌ أجاب عنه القرآن، فسيدُنا نوحٌ عليه الصلاة والسلام كان أكثرَ الرُسُلِ عليهم الصلاة والسلام دوامًا في الدعوة إلى الله وتبْيينِ الحقِّ، مُدةَ عمره الطويلة، وقد حكى القرآن الكريم ذلك في سورة سمّاها باسمه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا، مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٥-١٣]

إنه رغَّبهم بمغفرة الله، وبفضل الله، وبعطاء الدنيا، وبسَعَة العيش... لكن المشكلة تكمن - كما يخبر القرآن الكريم - في أنهم كانوا لا يرجون لله وقارًا.

تلك هي المشكلة الكبرى يا أمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فبمقدار ما يكون في قلب الإنسان من التعظيم والتوقير لله تبارك وتعالى، بمقدار ما يكون مُتفاعِلاً ومُستجيبًا لأمره، وبمقدار ما يَضعُف توقير هذا القلب لله تبارك وتعالى وتعظيمه، بمقدار ما تَضْعُف الاستجابة.

إنها علاقةٌ ينبغي لنا أن نتذكّرها دائمًا وأبدًا: (**العلاقةُ بين توقير القلب وتعظيمه لله، وما ينتُج عن هذا الإنسان من الاستجابة**).

لذلك أحببت أن أتحدّث عن:

أولاً- أسباب تعظيم القلب:

التي تُنتِج الاستجابة، وهي أمورٌ ثلاثةٌ: **تجرُّد القلب - والذكْر - والفِكْر**.

١- أما تجرُّد القلب: فمعناه أن يكون القلب حرًّا عن الأهواء، فلا تهيمن عليه رغبات النفس، بل يتحرر من التعصُّب والتقليد ونـــزعات النفس.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فإذا لم يتحرَّر قلب الإنسان من الأقفال، ومن هيمنة الرغبات، لا ينتفع بالذِّكْر والفِكْر.

٢- وأما الذِّكْر والفِكْر: فإن الله تبارك وتعالى قال في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩١]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

فعلى الإنسان أن يُعرِّض قلبَه لذكر الله تبارك وتعالى أكثر مما يُعرِّضه لذكر الدنيا، فواقعنا أننا نتفكّر ونذكر الدنيا أكثر مما نتفكّر ونذكر الله.

وهذا أنتج حالةَ غفلةٍ في القلب.

وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] فنبَّه بقوله: "العظيم" إلى حضور التعظيم.

والذكْر قد يكون تلك الصيغ التي وردت عن حبيبنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، من تسبيح الله وتهليله... وقد يكون من خلال قراءة كتابه، والقرآنُ سمَّاه الله سبحانه عظيمًا أيضًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]

فقراءة كتاب الله في حالةٍ من الأدب والتدبُّر والفهم تُنتج تعظيمًا، لكن حينما لا يتحرك لسان الإنسان إلا بذكر الدنيا والخَلْق... ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]

وهو وصف أهل النفاق.

والفِكْرُ: النظر في جليل صنعة الله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

فالذي خلق تلك السماء العظيمة وما فيها، وخلق الأرض وما فيها، هو أعظم وأجلّ، لأن الخالق أعظم من مخلوقه.

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] والعظيم هنا صفة للعرش، فقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولم يقل: ربُّ العرشِ **العظيمُ**.

فإذا كان الله تبارك وتعالى يخلق العرش العظيم، أليس الله تعالى بعظيم؟!

فالعرشُ هو المخلوقُ الأكبر الذي يصفه ربُّه بأنه العظيم، وهو تعالى ربُّ العرش العظيم، وخالق العرش العظيم.

ومثلُ هذا التفكر يقود الإنسانَ إلى تعظيم القلب.

ثانيًا- علامات تعظيم القلب:

إذا أراد الإنسان أن يختبر قلبه، هل لتعظيم القلب علامات؟

ألا يستطيع الإنسان منا أن يضع قلبه في الميزان ليختبره، أهو من أصحاب التعظيم، أم أنه من أهل الغفلة؟

نعم، فلتعظيم القلب علامات ثلاث:

١- استشعار الذُّلِّ بين يدي الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]

وحين تُصلِّي تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ولو لم تكن عاجزًا لما طلبت الاستعانة، ولو لم تكن ذليلاً لما طلبت العِزّة، ولو لم تكن ضعيفًا لما طلبت القوة...

وحين تسجد بين يدي مولاك، وتتململ بين يديه في الابتهال والدعاء، وأنت تستشعر في قلبك الحاجة إليه والذُلَّ بين يديه، فهي علامة أولى تدلُّ على تعظيمك له.

٢- وَجَل القلب وتعظيمه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]

ذُكِر الله أمامك، فما شعرت باهتزاز قلبك خشيةً وهيبةً لذِكْره..؟

وَجَلُ القلب وتعظيمُه: اهتزازُه واضطرابُه.

وإذا قيل لك: إن أمرًا جَلَلاً قد حصل، كيف يكون حالك؟

وحين يُنقَل إليك خبرٌ ما، تجد نفسك مضطربًا وقد اهتز قلبك، ألا يهتزُّ قلبك إذا ذُكِر الله؟!

٣- تعظيم شعائر الله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]

إذا ذُكِرَت شعيرةٌ من شعائر الله تبارك وتعالى، وحُكْمٌ من الأحكام التي بيّنها لنا سيدُنا وإمامنا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فاستخفَّ قلبك بها، إذًا، أنت لا تنتسب إلى التعظيم أبدًا.

أيُّ حُكمٍ: في الاقتصادِ، أو الاجتماعِ، أو الأسرةِ، أو الأحوالِ الشخصية، أو المعاملاتِ، أو تنظيمِ الفرد، أو الجماعةِ... ثَبَت عن الله ورسوله، فاستخفَّ القلب به، فهو يعني أنك مقطوعٌ عن التعظيم،

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]

إذًا، فالعلامات التي بها نختبر تعظيم القلب ثلاثة:

- **استشعار الذُلِّ بين يدي الله.**
- **وَجَلُ القلب واهتزازه واضطرابه عند ذكر الله.**
- **تعظيم شعائر الله.**

ثالثًا: ما هي النتائج العملية لتعظيم القلب؟

١- سرعة الاستجابة لأمر الله: قال الله سبحانه وتعالى في حق المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]

وسرعة الاستجابة تدلُّ على أنك قد سمعت من عظيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

فكلُّ أمر يدعوك اللهُ تعالى إليه ورسولُه، فيه لك حياة.

٢- امتثالُ أمر الله واجتنابُ نهيه:

ففي العلامات تحدّثنا عن تعظيم القلب، وهنا نتحدّث عن الامتثال العملي، أمرك الله بأمر، ونهاك بنهي، ففعلتَ ما أُمرت أن تفعله، وتركتَ ما أُمرت أن تجتنبه.

٣- حفظ حُرمات الخَلْق: وهي نتيجة عملية أيضا على أرض الواقع نأخذها من تعظيم القلب لله.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]

فإذا وجدتَ نفسك حافظًا لحُرُمات الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم... فأنت مُعظِّمٌ لله ولشعائره، وإذا وجدت نفسك مُتساهلاً في حُرُمات الخَلق، فإن هذا يعني أنك بعيدٌ عن التعظيم.

واللهِ لو أن تعظيم قلوبنا لله يزداد يومًا بعد يوم، لا نرى سارقًا، ولا مُغتابًا، ولا غاشًّا، ولا ظالمًا... لكننا سنرى تراحمًا وسنرى وِدًّا وسنرى محبة.

أهذه حلب؟ أين الجار من جاره؟ بل أين الولد من أمه، وأين هو من أبيه؟

هذا في العلاقات القريبة، أما العلاقات البعيدة فحدِّث ولا حرج.

أهذا ما طلبه منا ربُّنا تبارك وتعالى؟ لا..

يا حلب.. يا سورية.. يا بلاد العرب.. يا أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. عودةً إلى الإسلام، وعودةً إلى الأخلاق، وعودةً إلى الاستجابة لله ورسوله، وعودةً إلى تعظيم القلوب لله...

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.